كان من المتمسكين بفكرة عدم احتمال الخطر على الحياة السياسية ، الا انه نقل مشاعر التخوف لدى فريق من « غلاة التشاؤم » كما يسميهم . اصلاح الامور بنظره ، لن يكون بانشاء مستشفيات لمداواة العيون ، فهي « لا تغني عن مداواة القلوب » أو انشاء التكايا والملاجىء . ولا بد للصهيونيين من ان يعزموا عزما اكيدا على ترقية الوطن السوري بالتعاون مع اخوانهم العرب « ... وعندها يبلغ الصهيونيون ما يتمنون من تجديد مجد المدنية السامية » ويشير العظم ان لهذا السبب كانت النصيحة التي تقدم بها (اللامركزيون) لزعماء الصهيونيين بوجوب المبادرة الى التعاون مع العرب ، وذلك عن طريق تدريس اللغة العربية ، وفتح المدارس اليهودية لابناء العرب لتوجد بين الفريقين روح الالفة والتفاهم ، والتجنس بالجنسية الوطنية العثمانية كي لا ينظر العرب اليهم نظرتهم الى عنصر اجنبي ، ومعاشرة اهل البلاد ومراعاة حالتهم الاقتصادية فيكونوا عونا لهم . ويحث العظم من جديد الصهيونيين « .. ان لا يعولوا في ضمان مستقبلهم في البلاد على غير اهلها ، الذين يريدون مشاركتهم في وطنهم » ولا ينس ان يذكرهم انه قد دبت في الشبيبة العربية في فلسطين روح جديدة لجمع شمل المتنورين من الشعب لمقاومة الحركة الصهيونية ، ولا يجب الاستهانة فيها .

وتولى نسيم ملول ترجمة كلمة (رفيق العظم) الى العبرانية ، كما اسر بذلك في رسالة شخصية الى حقي العظم (٢٠ ابريل ١٩١٤)(٤٠)، وكان ينتظر عودة سوكولوف من القدس الى يافا حتى يطلعه عليها ويطلب منه ردا لنشره في المقطم ، لانه — اي ملول — كما يصف نفسه « .. من الذين يرغبون في تقريب الشعبين الشقيقين ، العربي والاسرائيلي ، وتفاهمهما ، لانه بهذا التفاهم خير البلاد وسعادتهما معا ما دام احدهما نصف الاخر » .

لم تعلق الصحافة في فلسطين على مقال (العظم) الا بذلك السؤال الذي وجهه صاحب الكرمل(٤١) الى « كتبة الصهيونيين المتموهين الذين يكذبون على الحقيقة وعلى انفسهم ، ويقولون ان الصهيونيين قرروا ان يتفقوا مع العرب .. » كيف يوفقون بين هذه الاقوال واقوال كتبتهم واعمالهم في فلسطين ؟ وكان اتجاه الراي العام في فلسطين يعبر وان لم يكن بصورة مباشرة عن رفض مطلق لدعوى التقارب . واغلاق جريدة فلسطين لم يقض على مشاعر التخوف الذي كان يلمس على جميع المستويات . اوضحت ذلك سلسلة المقابلات التي قام بها محمد الشنطي صاحب جريدة الاقدام (القاهرة) مع عدد من اعيان فلسطين حول رايهم بالمسألة الصهيونية مع قرب الانتخابات للمبعوثان(٤٢) .

ونقلت الصحف العربية الاخرى شعور التخوف الذي يبديه الفلسطينيون فصورت (فتى العرب)(٤٣) ان سكان فلسطين يتخوفون « ان يصبحوا غدا مماليك لا مالكين .. » ورات (المؤيد)(٤٤) في الصهيونيين انهم « اناس يحاولون ان يجعلوا اصحاب تلك البلاد اجراء وهم اصحاب السيادة ، او انهم يطردونهم الى الصحراء لينتفع عمال اليهود وفقرائهم حتى بمهنة الخدمة .. » ، واشارت (الاقدام)(٤٥) الى ان غاية الصهيونيين من استفحال امرهم في فلسطين والضغط على معنويات اهلها هو « اماتة عاطفتهم العربية بالوقوف سدا حائلا بين سوريا ومصر عاصمتي البلاد العربية .. » وتوجه اهل فلسطين بنداءات متكررة الى المراجع المسؤولة والنواب والزعماء العرب في الاستانة لوضع حد للمطامع الصهيونية « ... نحن اخوانكم الفلسطينيون ، شاطرناكم في كل مواقفكم انواع المحن ، فلماذا لا تشاطروننا على الاقل بشيء من الشعور بالمصائب التي تنصب على رؤوسنا ... نحن في وسط نكاد نفنى فيه ونجلى عن بلادنا ... ويحق علينا ما حق على هنود امريكا ازاء المهاجرة الاجنبية ... حاجتنا الى